March 2024
Vol 6 Issue One

Linguistic Composition Methodology Among Arabs in the Second Hijri Century: Abu Ubaydah (209/788) and His Book "Al-Khail" as a Model

Fadi Ahmed Sahu
Ph.D. Candidate
Department of Arabic Language and Literature
Université Saint-Joseph de Beyrouth - USJ
Institut de Lettres Orientales – USJ
fadi.alsahu@gmail.com
Issn online: 3006-7286, Impact Factor: 1.705
Orcid: 000- 0003-4452-9929
Doi: 10.5281/zenodo.13643460

Abstract: The research addresses the linguistic composition methodology among Arabs in the second century of the Hijra. It specifically examines the book "Al-Khail" by Abu Ubaydah (d. 209 AH). The study compares Abu Ubaydah's methodology in composition with that of his contemporaries, such as Al-Asma'i (d. 216 AH). The research concludes that Abu Ubaydah's linguistic composition methodology relies on two main points: oral transmission and experimentation. It highlights the significance of the humanities among Arabs and their eagerness towards the era of scientific specialization, following a precise scientific approach.

Keywords: Methodology – Composition – Oral – Experimental.

منهجيّة التأليف اللغوي عند العرب في القرن الثاني الهجري: أبو عبيدة (٧٨٨/٢٠٩) وكتابه الخيل "نموذجًا"

الملخص: يعالج البحثُ منهجيّة التأليف اللغويّ عند العرب في القرن الثاني الهجريّ. ويتناول كتاب **الخيل** لأبي عُبيدة (ت ٢٠٩ هـ) خصوصًا. ويقارن منهجيّة أبي عبيدة في التأليف بمنهجيّة مُعاصِريه، كالأصمعي (ت ٢١٦ هـ). وتوصّل البحث إلى أنّ منهجيّة التأليف اللغوي عند أبي عبيدة تعتمد على نقطتَين هما: النقل الشفهي، والتجريب. وبيّن البحث قيمة العلوم الإنسانيّة لدى العرب واندفاعهم نحو عصر التخصص العلمي وفق منهجيّة علمية دقيقة.

الكلمات المفتاحية: منهجيّة – التأليف – الشفهي – التجريب.

المقدمة

لم يكن بين العلوم حدودٌ فاصلةٌ في القرون الأولى من الإسلام؛ فنجد اللغويّ نحويًّا وناقدًا وقارئًا ومُفسّرًا ومؤرّخًا في كثير من الأحيان. ولكن بعض العلماء يتخصّص أو كاد يتخصّص في مجال واحد. من هؤلاء المتخصّصين أبو عُبيدة مَعْمَر بن المُثنَّى (٧٨٨/٢٠٩).

المشكلة البحثيّة

كانت اللغة الشفاهية مسيطرة على الثقافة العربيّة حتّى نزول القرآن الكريم، ولم تكن هناك كُتب مؤلّفة باللغة العربيّة عدا بعض الكتابات المقطعيّة أو النقوشات التي لا تشكّل مؤلَّفًا أو نصًّا متكاملًا. وكانت الثقافة الموسوعيّة أحد مظاهر الحركة الثقافيّة العربيّة. فكيف كانت منهجيّة التأليف العربيّة؟ هل كانت عشوائيّة أم منظّمة؟ وما الوسائل التي لجأ إليها المؤلّف لكتابة عمله؟ وهل اعتنى العرب بالتخصّص والفصل بين العلوم عصرئذٍ؟

منهج البحث

اعتمدت في هذه الدراسة المنهجَ التاريخي لجمع أخبار أبي عبيدة ومعاصريه وتسليط الضوء على عصره. واعتمدت المنهجَ الوصفي لشرح المادّة العلميّة لكتاب **الخيل** وتوصيفها لأنّها تمثّل العمود الفقري لبحثنا، وبها استطعنا تحديد ضوابط منهجيّة حركة التأليف اللغويّة العربيّة في ذلك العصر.

أهداف البحث

نطمح في بحثنا إلى تسليط الضوء على مخبوءات التّراث العربيّ، ونوادره اللغويّة، وكنوزه الأدبيّة، وإخضاعها للدرس والنّقد، لمعرفة بدايات الحركة التأليفيّة العربيّة، وكيفيّة تطوّرها عبر التاريخ، ومعرفة مناهج المؤلّفين العرب، وسبر طريقة تفكيرهم.

أهميّة البحث

إنّ اللغة هي الحامل الأساس لأيّ ثقافة، ولا بُدّ لنا من معرفة نوادرنا اللغويّة لأنّها جزء لا يتجزّأ من هويّتنا العربيّة. وإنّ معرفة منهجيّة التأليف تساعدنا في معرفة طريقة تفكير المؤلّفين التي تعكس إلى حدّ بعيد روح العصر وثقافته. ويساعدنا البحث في وضع معجم لغوي لألفاظ الخيل خصوصًا، ووهي بطبيعة الحال جزء المعجم اللغويّ العربيّ.

المبحث الأوّل: أبو عبيدة وأخباره وآثاره

أ- نشأته

أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثنّى، مولى لقبيلة تميم، ثمّ لقبيلة قريش. وُلِدَ في رجب سنة ١١٠ هـ/٦٨٩م. وذكر أبو موسى محمّد بن المثنّى أنّ وفاة أبي عبيدة سنة ٢٠٨ هـ/٧٨٧م. وقال الصولي: سنة ٢٠٧هـ/٧٨٦م. وقال المظفّر بن يحيى: سنة ٢٠٩هـ/٧٨٨م[١].

ب- آثاره

كان أبو عبيدة عالمًا لغويًّا، وعالمًا بأيَّام العرب وأخبارها. وهو أوّل مَن صَنَّف في غريب الحديث. أخذ العلم عن العالِم النّحوي يونس بن حبيب، وأبي عمرو بن العلاء، وأسند الحديث إلى هشام بن عروة. قال يعقوب بن شيبة: سمعت ابن المديني يصحّح رواية أبي عبيدة. وقال الدارقطني: لا بأس به. وممّن أخذ عن أبي عبيدة أبي عبيد القاسم بن سلّام، والأثرم بن علي بن المغيرة والسجّستاني وغيرهم[٢].

وتنوّعت مصنّفات أبي عبيدة، وهي: كُتب تاريخيَّة، ولغويَّة، ودينيّة، والحيوانات. أمّا الكتب التاريخيّة فتتناول أيّام العرب ومثالبهم والفتوحات الإسلاميَّة.[٣]

ومن كتب الحيوانات كتاب **الخيل**؛ أهمّ مؤلَّف كُتِبَ عن الخيل. وكتب كذلك عن مختلف الطيور والحيوانات الأخرى، كالحيَّات والحَمَام والعقارب والإبل، وله كُتب أخرى في مجالات شتّى، ومنها كتاب الاحتلام، وكتاب أدعية العرب وغيرها[٤].

ج- كتاب **الخيل** خصوصًا

إنّ كتاب الخيل لأبي عبيدة من أهمّ الكتب العربيّة التي تناولت الخيل، على غرار كتاب أنساب الخيل لابن الكلبي، وكُتُب الأصمعي في الخيل. فهو مِن أوفى المصادر العربيَّة في الخيل. وقد جمع صاحبه ما قِيل في الخيل من الجاهليَّة والإسلام؛ ذكر أنساب الخيل بالتفصيل، وذكر في كتابه كلّ أسماء الخيول العربيَّة التي استُعملت في الجاهلية والإسلام.

وذكرتُ كُتُبَ الأصمعي في الخيل للمُعاصَرة؛ فالأصمعي من مُعاصِرِي أبي عبيدة. وذكرَ أحمد تيمور باشا في مقالته "نوادر المخطوطات" أنّه وقف عليه بمكتبة عارف بك بالمدينة المنوّرة، وأنّه أوفى كُتُب المُتقدّمين في هذا الموضوع.[٥]

وتضمَّن الكتاب صيانة العرب للخيل وإيثارهم لها وأشعارهم فيها، والأمر بارتباطها، وما وَرَدَ في فضلها من الأحاديث النَّبويَّة. وتوسَّع أبو عبيدة في ذكر خَلْق الفرس، ووصف أعضاءها عضوًا عضوًا، ووصف

[١] الفيروزآبادي، **البُلغة**، ص ٢٦١.
[٢] ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ص ٢٤٥.
[٣] المصدر السابق نفسه، ص ٢٦١.
[٤] ابن خلّكان، **وفيات الأعيان**، ص ١٣٩.

[٥] أبو عبيدة، **الخيل**، ص ١٨١.

آذانها وشيّاتها، وذكر العيوب الحادثة التي تصيب الخيل نتيجة لحادث ما، ووصف عيوب الخيل الخَلقيَّة؛ أي منذ ولادتها، وتناول ما تستحبُّه العرب من الخيل وما تكرهه، وألوان الخيل، ومشاهير خيل العرب إلى غير ذلك. واستشهد بمئات الأبيات الشعريَّة، من الشَّعر الجاهلي وما تلاه.

وإذا ما قارنا بين أسلوب الأصمعي في كتابه الخيل وبين أسلوب أبي عبيدة في كتابه الخيل نجد فرقًا كبيرًا من حيث التوسع، ومن ذلك تعريف الأصمعي للحُوَّة: هي خضرة تضرب إلى سواد ويقال قد احْوَاوَى وهو يَحْواوي احويواء، وبعض العرب يقول: احووى يحووى احوواء، وبعض العرب يقول قد حوى يحوى حُوّة[١].

أمّا تعريف أبي عبيدة للحوّة فهو: فمنهن أحوى أحمّ وأحوى أصبح وأحوى أطحل وأحوى أكهب..فأمّا الأحوى الأحمّ فالمُشاكِل للدهمة والخضرة، ولا يفرّق بينه وبين الأخضر الأحمّ إلَّا في عرض منخره وشاكلته، فأمّا الأصبح فالذي تقلُّ حمرة مناخره فتصير إلى السواد، ويصير أطراف المنخرَين الغالب عليهما البياض..إلخ.[٢]

ونلاحظ من هذه المقارنة أنَّ لغة الأصمعي صعبة وموجزة؛ فهي غير واضحة. وأمّا لغة أبي عبيدة فأسهل، وفيها إطناب، لكنَّها مفهومة. وقال حسين نصّار: "فالموضوعات التي كتب فيها أبو عبيدة نجدها أو ما يماثلها عند أكثر من بعده، والتفت أبو عبيدة إلى كثير من نواحي الخيل؛ إذ وصف مكانتها عند العرب، وذكر أسماءها في مراحل حياتها والأصوات التي تُدعَى بها، وعيوبها وأوصاف أعناقها وألوانها وشيّاتها. وكان في تناوله لأسماء الأعضاء يتناول عضوًا عضوًا ويسمّي ما فيه من أجزاء"[٣].

المبحث الثاني: منهج أبي عبيدة في كتابه الخيل

لكلّ مؤلّف طريقته الخاصّة في معالجة المواضيع المختلفة التي يطرحها على شكل فرضيّة أو إشكاليَّة يحاول إثباتها أو دحضها. ومناهج المؤلّفين ليست واحدة في التأليف، وذلك تبعًا لغرض الباحث، ودراسة مناهج المؤلّفين من أهمّ البحوث التي يجب النظر فيها باهتمام وعناية كبيرَين، بغية إلقاء الضوء على طُرُق الكُتّاب والكتابة اللغويَّة والتاريخيَّة، وأهدافهم ودوافعهم، والمواجهات الاجتماعيَّة والفكريَّة والحضاريَّة التي أسهمت في كتاباتهم.

وسندرس منهج أبي عبيدة في كتابه الخيل، وسنتناول فيما يأتي خلوّ كتابه الخيل من مُقدّمة وخاتمة، ومصادر كتاب الخيل، والشواهد التي أوردها أبو عبيدة في كتابه، وسنتناول التكرار في كتابه أيضًا.

١- خلوّ كتاب الخيل من مقدّمة وخاتمة

[١] الأصمعي، **الخيل**، ص ١١.
[٢] أبو عبيدة، **الخيل**، ص ١٠٤.
[٣] حسين نصّار، **المعجم العربيّ**، ص ١٤٥.

يفتقر كتاب الخيل إلى مُقدّمة وخاتمة، لكنّ أبا عبيدة أَوْلَى مضمون الكتاب جهده، فقام بشرح معظم ما جاء فيه خلا بعض الكلمات التي لم يشرحها ولم يعلّق عليها.

٢- مصادر كتاب الخيل

اعتمد أبو عبيدة على مشاهداته الخاصّة، وعلى ما سمعه من العرب وأَلِفَه، مثلًا:" عن أبي العيناء قال: قال الأصمعي: دخلت أنا وأبو عبيدة على الفضل بن الرَّبيع فقال: يا أصمعي كم كتابك في الخيل؟ فقلت له مجلّد. قال فسأل أبا عبيدة عن ذلك فقال خمسون مجلَّدًا. فأمر بإحضار الكتابَين. قال ثُمَّ أمر بإحضار فرس فقال لأبي عبيدة اقرأ كتابك حرفًا حرفًا وضعْ يدك على موضعٍ موضعٍ. فقال أبو عبيدة لست أنا بيطار، وإنَّما ذا شيء أخذته وسمعته من العرب وألفته[١].

إنّ هذه الحادثة تبيّن لنا كيف كان يؤلّف أبو عبيدة كتابه اعتمادًا على الثقافة الشفهيّة المتداولة، فهو يحفظ المُسمَّيات لكنَّه لا يعرف مواضعها في الفرس بدقّة! وعزى الأمر للبيطار! وهذا يدلُّ على أنَّ التخصص أخذ يشقُّ طريقه في ذلك العصر. وإنَّ اعتراف أبي عبيدة بعدم معرفته مواضع المسمَّيات يشير إلى أمانته العلميَّة وتواضعه في العلم. يقول فون كريمر Von Kramer : إنَّ أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو جليًّا في حقل المعرفة التجريبيَّة ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم. فإنَّهم كانوا يبدون نشاطًا واجتهادًا عجيبَين حين يلاحظون ويمحّصون وحين يجمعون ويرتّبون ما تعلَّموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد. ولذلك فإنَّ أسلوبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيرًا عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف"[٢].

٣- شواهد كتاب الخيل

استشهد أبو عبيدة بمقطوعات شعريَّة لشعراء جاهليّين وإسلاميَّين بلغت (٦٣٤) بيتًا[٣]، معظمها جاء على شكل مقطوعات مستقلَّة لا رابط بينها إطلاقًا ومعظمها للشاعر امرئ القيس، ربّما لأنَّه من شعراء الطبقة الأولى، واستشهد بأراجيز شعريّة كثيرة لرؤبة بن العجّاج. ومن أبيات امرئ القيس التي استشهد بها:

الخيرُ ما طَلَعَتْ شَمسٌ ومَا غَرَبَتْ مُعلّق بِنواصِي الخَيلِ، مَعصُوبُ

والشعراء هم: امرؤ القيس، أبو دواد، عُدي بن زيد، عوف التميمي، بشر بن أبي حازم وغيرهم.

إنّ كثرة الشواهد الشعريَّة في كتاب الخيل تدلُّ على ثقافة أبي عبيدة وسعة ذاكرته الأدبيّة فقد استطاع أن يستحضر كلّ هذه الأبيات وفقًا لما تقتضيه الحاجة في متن كتاب الخيل، كما يدلّ على

[١] أبو عبيدة، **الخيل**، ص ١٧٠.
[٢] فرانز روزنتال، **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي**، ص ٢٣٢.
[٣] قمتُ بإحصائها.

أهمّيَّة الشَّعر في التأليف اللغوي، وهذا يشير إلى قوّة اللغة العربيّة والاهتمام بالموروث الأدبي للأمّة العربيّة.

٤- التكرار

إنَّ الكتاب حافل بمظاهر التكرار التي أدَّت إلى اضطراب في بنية الكتاب. وقد وردت الألفاظ الآتية في موضعين مختلفين من دون أيّ فائدة؛ والألفاظ هي: السّف، الزّعر، وردت في باب عيوب الخيل، وخلق الخيل. وكرَّر الشرح نفسه في البابَين، ولعلَّ هذا التكرار يعود إلى اضطراب في جمع مادّة الكتاب بعد وفاة أبي عبيدة!

إنّ كتاب الخيل مصدر لغويّ مهمّ لِمَا فيه من معلومات كثيرة ذات أهمّيّة كبيرة فيما يتعلَّق بالخيول وصفاتها. وإنَّ اضطراب منهجه بعض الشيء لا يقلّل من أهمّيّة مضمونه وقيمته العلميّة؛ لا سيَّما تصديره الفصل بمجموعة من الأسماء وحشدها جملة واحدة ثمّ تفسيرها، فضلًا عن كثرة الأشعار وعدم التعليق عليها، كلّ هذا سبَّب اضطرابًا في المنهج. يقول حسين نصّار: "وكان كثير من الأحيان يصدّر الفصل بمجموعة من الأسماء التي يفسّرها. ثمّ يأخذ في تفسيرها واحدًا واحدًا ويكثر من الأشعار في بعضها ويقلّل في بعضها الآخر. ولكن التقسيم عنده مُضْطَرِبٌ، فنجد أكثر من باب تناول أمرًا واحدًا بدون داع"[١].

الخاتمة

ومُجْمَلُ القول اعتنى أبو عبيدة في كتابه الخيل بالجانب اللغوي عناية فائقة؛ فكتابه وثيقة لغويَّة، يمكننا العودة إليها بوصفها مصدرًا لغويًّا مُهمًّا، وخاصّة طريقة معالجته لخلق الخيل. وقد تناول الأعضاء عضوًا عضوًا، وقام بشرح تلك الأعضاء، وانتقل بعدها إلى صفات الخيل، وقام برصد عشرات الصفات، لكنَّه لم يشرحها أو يفسّرها.

ودرس أبو عبيدة أسماء الخيل حسب أعمارها من الفلو إلى الحولي إلى الجدع إلى الحفر فالثني فالرّباع وأخيرًا القارح. وخصَّصَ لألوان الخيل حيّزًا واسعًا من كتابه. وأطال في شرحها من دهمة إلى شقرة إلى كمتة. وأمَّا أصوات الخيل فكان لها باب أيضًا، تحدَّث فيه أبو عبيدة عن أنواع أصوات الخيل من صهيل وغيره. ثمّ ذكر عيوب الخيل في باب آخر، وقسّمها إلى قسمَين؛ عيوب في خلقة الخيل، وأخرى حادثة. وأفرد بابًا خاصًّا ذكر فيه ما تُدعَى به الخيل، فذكر كلَّ الأسماء التي تُدعَى بها،

[١] حسين نصّار، **المعجم العربيّ**، ص ١١٧.

وجاء تحت عنوان دعاء الخيل. ولأبي عبيدة جهد واضح في هذا الكتاب لا يمكن نكرانه، على ما فيه من الخلط والاضطراب اللذين سادَا بعض أبواب الكتاب، ففي الكتاب معلومات قيّمة لا غنى عنها لمن أراد البحث في الخيل والفروسيَّة والاطلاع على مناهج التأليف اللغوي عند العرب في ذلك العصر.

من خلال ما تقدَّم يمكننا القول: إنَّ تراثنا العربيّ مليء بالنوادر اللغويَّة، ومنها كتاب الخيل لأبي عبيدة. وقد جاء هذا الكتاب وافيًا إلى غرض البحث في أمور الخيل من جهة، وفي أمور اللغة من جهة أخرى، لا سيَّما أنَّه وصف الخيل وصفًا دقيقًا، فشمل هذا الوصف أعضاء الخيل الداخليَّة والخارجيَّة كلّها، وتحدَّث عن عيوب الخيل وشيَّاتها وألوانها، وعن أحوال المهر في مراحل حياته. واستشهد بمقطوعات شعريَّة متنوّعة، لكنّ ذلك جعل الكتاب مادَّة لغويَّة لا تخلو من الصعوبة.

ويتبيَّن لنا من طريقة تأليف هذا الكتاب وجود منافسة بين العلماء والمؤلّفين (الأصمعي وأبو عبيدة) وهذا مؤشّر على مدى اندفاع العرب واهتمامهم بالعلوم الإنسانيّة وبدايات عصر التخصّص. ورأينا طريقة التجريب ودورها في التفكير العلمي عند المؤلّف العربيّ، ولعلّ التجريب والرواية وتقديم الشواهد من أبرز خطوات البحث العلمي. وأختم بحثي بقول للمستشرقة الألمانيَّة زيغريد هونكة (Sigrid Hunke) في كتابها **شمس الله تسطع على الغرب** مؤكّدة أنّ روجر بيكون Rogar (Bacon) أو ليوناردو دافنشي (Leonard Davinci) أو جاليليو (Galilleo) ليسوا هم الذين أسّسوا البحث العلمي، إنّما السبّاقون في هذا المضمار كانوا العرب[١].

[١] بركات محمّد مراد، "الإسلام والحضارة"، موقع ثقافات، تاريخ النشر ٢٣ آذار ٢٠١٦، تاريخ المراجعة ١-٨-٢٠٢٣. الإسلام والحضارة - ثقافات(thaqafat.com)

المصادر والمراجع باللغة العربية

١- الأصمعي، عبد الملك بن علي (١٨٩٥)، **كتاب الخيل**، ط١، فيّنا: ديرويس إنسينشا.

٢- أبو عبيدة، معمر بن المثنّى (لا تاريخ)، **الخيل**، ط١، حيدرآباد: دائرة المعارف العثمانية.

٣- ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمّد (لا تاريخ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**؛ حقّقه إحسان عبّاس، لا طبعة، بيروت: دار الثقافة.

٤- الحموي، ياقوت بن عبد الله (لا تاريخ)، **معجم الأدباء**، لا طبعة، القاهرة: وزارة الثقافة، ٢٠ مجلّدًا، ج١٩.

٥- فرانتز روزنتال (١٩٦١)، **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي**؛ ترجمه أنيس فريحة، وليد عرفات، بيروت: دار الثقافة بالتعاون مع مؤسّسة فرانكلين بنيويورك.

٦- الفيروزآبادي، مجد الدين محمّد بن يعقوب (١٩٧٢)، **البُلغة في تاريخ أئمة اللغة**؛ تحقيق محمّد المصريّ، لا طبعة، القاهرة: وزارة الثقافة.

٧- نصّار، حسين (١٩٥٦)، **المعجم العربيّ نشاته وتطوّره**، ط١، القاهرة: دار الكتاب العربيّ.

References in English

- Al-Asma'i, Abdul Malik bin Ali (1895), Kitab al-Khayl, 1st ed., Vienna: Derweiss Ensign.
- Abu Ubaidah, Muammar bin al-Muthanna (no date), al-Khayl, 1st ed., Hyderabad: Ottoman Encyclopedia.
- Ibn Khallikan, Shams al-Din Ahmad bin Muhammad (no date), Wafiyat al-A'yan wa Anba' Abna al-Zaman; edited by Ihsan Abbas, no edition, Beirut: Dar al-Thaqafah.
- Al-Hamawi, Yaqut bin Abdullah (no date), Mu'jam al-Udaba', no edition, Cairo: Ministry of Culture, 20 volumes, Vol. 19.
- Franz Rosenthal (1961), Methods of Muslim Scholars in Scientific Research; translated by Anis Freiha, Walid Arafat, Beirut: Dar al-Thaqafah in cooperation with the Franklin Foundation in New York.
- Al-Fayruzabadi, Majd al-Din Muhammad bin Yaqub (1972), Al-Bulghah fi Tarikh A'immah al-Lugha; edited by Muhammad al-Masri, no edition, Cairo: Ministry of Culture.
- Nassar, Hussein (1956), Al-Mu'jam al-Arabi, its origins and development, 1st ed., Cairo: Dar al-Kitab al-Arabi.